أدونيس في ضوء النقد المعاصر

Adonis in the Light of the Contemporary Criticism

أ.م.د علي حسين يوسف [1] Assist. Prof. Ali Hossein Yousif

الملخص

يعد أدونيس من أبرز الأدباء العرب المعاصرين، وأوفرهم نتاجا، وأكثرهم نشاطا، وكان شاعرا مبتكرا، ومنظرا مشاكسا، لذلك كان موضع اهتمام النقاد والدارسين منذ عرف في الساحة الأدبية، وهذا البحث محاولة للخوض في عدد من تلك الدراسات النقدية التي انصبت على دراسة المنجز الأدونيسي في الشعر والنقد والفكر، كتبها نقاد عرب وأجانب معاصرون، التزموا فيها بمناهج نقدية متباينة؛ حاولوا من خلالها تسليط أدوات تلك المناهج في تحليل المشروع الأدونيسي وتفكيكه؛ لذلك جاء البحث في ثلاثة مباحث، سبقها –جميعا– تمهيد في حياة أدونيس وتطوره الثقافي والفكري، كان عنوان المبحث الأول: أدونيس في ضوء نظرية التناص، فيما كان المبحث الثاني بعنوان: أدونيس في ضوء النقد الثقافي، أما المبحث الثالث فقد كان بعنوان: أدونيس في النقد الفلسفي.

الكلمات المفتاحية: ادونيس، نظرية التناص، النقد الثقافي، النقد الفلسفي.

Abstract

The Adonis of the most prominent Arab writers contemporaries, and most productive, and energetic, he was a poet innovative, and theorist troublemaker, so it was of interest to a number of critics and scholars, this research tries to delve into a number of critical studies that have focused on the study done Alodonisi in poetry and criticism, by Critics of Arab and foreign contemporary, committed to the contemporary methods of cash, they tried through which shed tools that curricula in Alodonisi project analysis, so it made us search in three sections, preceded by a boot in the life of Adonis

[1] – المديرية العامة لتربية كربلاء.

cultural and intellectual development, while the first section: Adonis address in light of intertextuality theory The second topic was titled: Adonis in light of cultural criticism, and the third section entitled: Adonis in philosophical criticism.

المقدمة

يسعى النقد العربي المعاصر جاهدا لمواكبة الحراك النقدي العالمي، والإفادة من منهجياته المعاصرة وآليات اشتغاله الجديدة، من خلال توظيف تلك المنهجيات والآليات في دراسة المدونة الأدبية العربية القديمة والحديثة على وفق معطيات الحياة المعاصرة.

وقد كان أدونيس صاحب حظ وافر من بين الأدباء العرب المعاصرين الذين نالوا اهتمام النقاد في الدرس النقدي، لما انماز به النصّ الأدونيسي؛ شعرا كان أم نثرا من ثراء معرفي وجمالي جعله يصلح لقراءات متباينة وتأويلات شتى.

وهذا البحث الذي بين يديك –عزيزي القارئ– دراسة تحليلية لتتبع أبرز الجهود التي حاولت قراءة المنجز الأدونيسي في ضوء عدد من المناهج النقدية المعاصرة، يدفعنا نحو ذلك الرغبة في الكتابة بهذا الموضوع وقلّة ما كتب فيه في المجال الأكاديمي العراقي بحسب ظن الباحث.

وقد تطلبت طبيعة الموضوع أن يقوم البحث على ثلاثة مباحث، يسبقها تمهيد، ويعقبها خاتمة.

كان التمهيد في فقرات عدة تناولت حياة أدونيس، وثقافته، وأهم ما كتب عنه من نقود عامة لا يمكن تصنيفها في منهج بعينه.

أما المبحث الأول فقد قام على دراسة الجهد النقدي الذي حاول دراسة المنجز الأدونيسي في ضوء نظرية التناص.

فيما تكفل المبحث الثاني بتتبع الدرس النقدي الذي حاول قراءة ذلك المنجز في ضوء النقد الثقافي.

أما المبحث الثالث فقد قام على دراسة الجهد النقدي ذات المنحى الفلسفي الذي تكفل بدراسة المشروع الأدونيسي.

وقد أفاد الباحث من مجموعة كبيرة من المصادر؛ تنوعت على النصوص النقدية المدروسة نفسها، وعلى عدد من مؤلفات أدونيس، فضلا على عدد من الكتب المتعلقة بالمناهج النقدية المذكورة.

وقد بذل الباحث جهدا في لملمة أطراف البحث، لإظهاره بالصورة المطلوبة، لذلك واجه متاعب عدة تمثلت في صعوبة تصنيف العمل النقدي الذي تكفل بدراسة أدونيس، فالعديد من تلك الاعمال ليس من السهولة وضعها تحت طاولة منهج محدد، لكن الرغبة في انجاز البحث قللت كثيرا من تلك المشكلة.

وقد حاول الباحث ما وسعه من جهد الجمع بين الإيجاز والإفادة نظرا لما تتطلبه الضوابط البحثية، نأمل أن نكون ممن يوفقهم الله في مساعيهم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

التمهيد

أدونيس... أيقونة الاسم

علي أحمد سعيد أسبر، شاعر سوري، ولد سنة ١٩٣٠، أحب أن يتسمى باسم (أدونيس)، فأطلقه على نفسه عام ١٩٤٨، وأدونيس يعني باللغة الفينيقية: الرب أو السيد، وهو اسم إله سوري يرتبط بطقوس النباتات، تقول الأسطورة بأن أصله شاب قبرصي جميل، كان ابنا لامرأة جميلة اسمها: (مُرّة)، ضاجعها أبوها ذات يوم فحملت بأدونيس، فعاقبتها الآلهة نتيجة لهذا السفاح بأن حولتها إلى شجرة، وبعد تسعة أشهر من تحويلها ولد أدونيس من لحاء الشجرة، وقامت بتربيته اخته (إفروديت) التي أغرمت به فيما بعد وعشقته لكن الإلهة (ارتميس) أرسلت إليه خنزيرا بريا قام بقتله[٢].

أدونيس مثقفاً:

لقد تأثر أدونيس بالحضارة السورية القديمة- الفينيقية، وقد اتضح هذا التأثر، بكثرة توظيفه لرموز تلك الحضارة في شعره ويبدو هذا واضحا في قصائده التي نشرها في تلك الحقبة، وقد كان ذلك قبل انفصاله عن مجلة شعر ١٩٦٣[٣]، كذلك تأثر بالتراث العربي، وتوظيف رموزه، وقضاياه في شعره، فقد أغرم أدونيس بالمتصوفة المسلمين، ومناهجهم في الكشف، والاشراق والتجلي، واستعمل كثيرا من رموزهم وأفكارهم، لأنهم -كما يرى- تجاوزوا المسلمات وجاهدوا في خلق رؤى ذاتية خالصة، كما نجد ذلك -بحسب أدونيس- عند السهروردي، وابن عربي، والتوحيدي، والنفري، وقد ظهر ذلك جليا في ديوانه الأول: (أغاني مهيار الدمشقي) الذي تميز بالتمرد الواضح على مستوى الدين أو الثقافة[٤]، وكان قد قرأ التراث: السوري القديم، والتراث العربي والإسلامي، بمنظار المنهجيات الغربية، من أجل مجاوزة ذلك التراث.

وقد مازج أدونيس بين ثقافته الصوفية، وتأثره بالثقافة الألمانية، والفرنسية، لا سيما تأثره بنتشه وإليوت [٥]، فضلا على تأثره بماركس، ورامبو، والبير كامو، وسارتر وصولا إلى تأثره بالمنهجيات ما بعد الحداثوية عند: فوكو، والشكلانيين، والسوريالية، وهيدجر[٦]، لذلك ليس من الغريب ((تبشير أدونيس بالنقد الجديد الغربي، والتعريف بمبادئ بعض أقطابه وعلى رأسه بارت))[٧].

ومما تقدم يبدو أن مصادر أدونيس الفكرية، سواء تلك التي ترتبط بالتراث العربي القديم، أم تلك التي ترتبط بالثقافة الأجنبية كانت تقتصر على المصادر (الثورية) التي تركز على مفاهيم التمرد، والرفض، والمغايرة، والتجديد الجذري، أو على الأقل تلك المصادر التي فهمها أدونيس على أنها ذات روح (ثورية) مغايرة، فالرجل في نتاجه الشعري والتنظيري يقتنص منها ما يخالف السائد والثابت والقار بالتشذيب تارة والتحوير تارة ثانية والنقل تارة ثالثة بإعماله ملكاته الإبداعية التي كانت محط اهتمام كبير.

٢- ينظر: حوار مع أدونيس الطفولة، الشعر، المنفى، صقر أبو فخر: ٦، معجم الميثولوجيا الكلاسيكية اليونانية والرومانية: ٢٢.
٣- ينظر: اضاءات على عالم أدونيس: ١٣٤.
٤- ينظر: اضاءات على عالم أدونيس: ١٣٥.
٥- ينظر: اضاءات على عالم أدونيس: ١٣٦.
٦- ينظر: اضاءات على عالم أدونيس: ١٣٣-١٥٠.
٧- النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، محمد ناصر العجمي، دار محمد علي الحامي، للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، ط١، ١٩٩٨، ١٣١.

أدونيس في ضوء الجهود النقدية ذات المنحى العام

لابدّ- أولا- من الإشارة إلى أن المقصود بعبارة (الجهود النقدية ذات المنحى العام) تلك الدراسات التي لا يمكن تصنيفها في منهج نقدي محدد.

حاول الناقد العراقي الدكتور فارس عبدالله بدر الرحاوي قراءة مشروع الحداثة عند أدونيس في كتابه: (الحداثة في الخطاب النقدي عند أدونيس) باستخدام لغة أدونيس ذاتها، ويعد هذا الكتاب من أوسع الكتب التي كتبت عن الجانب النقدي عند أدونيس، وأشملها، إذ استعرض فيه المؤلف المنتَج النقدي الأدونيسي، وتتبع مراحل تطوره، بالاستعانة على مؤلفات أدونيس التنظيرية والنثرية، لكن مما يلاحظ على الكتاب أنه لم يلتزم منهجية واحدة في عرض ذلك المنتج، فقد مازج المؤلف بين العرض التاريخي والوصف الموضوعي، لأهم القضايا التي شغلت أدونيس.

فالمؤلف يسلّم منذ البداية بأن أدونيس كان من أوائل دعاة الحداثة العربية، وقد أصبح موضوع جدل بين مؤيديه ومعارضيه[٨]، والمؤلف يقصر جهده على الجانب النقدي عند أدونيس من خلال عرضه لأفكار أدونيس النقدية والتنظيرية في مسائل الحداثة والتراث، وقضايا: اللغة، والتشكيل، والرؤيا، والسؤال[٩].

ومما يحسب للمؤلف أنه عرض وجهي أدونيس: التراثي الأصيل والغربي الرافض، ليتوصل الرحاوي بعد ذلك إلى أن أدونيس مزيج ثقافتين: غربية، وعربية، فهو -أي أدونيس- من جهة يرفض أغلب مقومات الثقافة العربية بحجة أنها لم تعد تنفع لزماننا هذا، ومن جهة أخرى يبدو أصوليا عنيدا حينما يؤكد: إن من لا تراث له لا جذور له، ومن لا جذور له فهو غصن يابس، لذلك يبدو أدونيس- كما يقول المؤلف الرحاوي -متناقضا- متطرفا أحيانا، لا يقرّ على رأي، مما كون بأفكاره تلك ظاهرة جديرة بالدراسة، وذلك ما دفع الرحاوي إلى تأليف كتابه هذا[١٠].

والملاحظ على الكتاب المذكور تغليب جانب العرض وغياب جانب الموازنة بين آراء أدونيس، مما جعل ذلك التناقض الذي ألمح إليه المؤلف وأكده لا يكاد يظهر بصورة جلية بين ثنايا كتابه.

وفضلا على ما تقدم فقد وجدت مؤلفات عدة أخرى كتبت حول مشروع أدونيس، ويمكن القول إن تلك الدراسات اتخذت جانب العرض في طرح المشروع الأدونيسي، باتباعها آليات نقدية معاصرة من شأنها الكشف عن الموقف الشعري والنقدي لأدونيس.

من تلك المؤلفات، كتاب: (تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني) للأستاذ الجزائري الدكتور حبيب بوهرر الأستاذ في كلية الآداب في القسنطينة في الجزائر الذي حاول من خلاله تتبع المسارات الفكرية والابداعية لأدونيس منذ الأربعينيات للوقوف على ملامح التجديد والتقليد عنده، والسعي للوقوف على الخلفيات الفكرية المساعدة على تشكيل النظرة الشعرية عند أدونيس ثم يستعرض المؤلف أصول الحداثة الأدونيسية[١١].

٨- ينظر: الحداثة في الخطاب النقدي عند أدونيس: ٦-٧.
٩- ينظر: الحداثة في الخطاب النقدي عند أدونيس: ٢٣٥ و ٢٧٣ و ٣٢٩ و ٣٣١ و ٣٥٤ و ٣٧٧ و ٣٩٧.
١٠- ينظر: الحداثة في الخطاب النقدي عند أدونيس: ٧.
١١- ينظر: تشكيل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني: ١٣ و ١٤ و ١٢١ و ١٩٩.

ويأتي كتاب الدكتورة آمال منصور، المعنون: (أدونيس وبنية القصيدة القصيرة) ليسلط الأضواء على النصوص الشعرية القصيرة عند أدونيس في ديوانه: أغاني مهيار الدمشقي، ويمكن القول إن المؤلفة حاولت قدر الإمكان انتهاج الموضوعية في كتابها هذا، من خلال الدراسة الفنية التي اضطلعت بها في كتابها بدراستها للتشكيل اللغوي، والإيقاعي والرؤيوي لتلك النصوص[١٢].

وقد كتبت عن أدونيس مقالات، ودراسات كثيرة جدا، حاولت أن تقف على الحياد من الفكر الأدونيسي، ومنجزه الابداعي، ولم تقتصر تلك الكتابات على النقاد العرب، فقد كتب عنه نقاد وأدباء أجانب منهم: الشاعر الفرنسي (باتريك رافو) الذي كتب دراسة بعنوان: (أدونيس والبحث عن الهوية) قام بترجمتها إلى العربية وليد الخشاب[١٣]، وكتب عنه –أيضا– (بيير دينو) دراسة بعنوان: (الصوت المتجول لأدونيس) قامت بترجمتها إلى العربية منى سعفان، ونشرتها مجلة فصول[١٤]، وكتب عنه (ز.خان) دراسة بعنوان: (أدونيس، دراسة في الرفض والبعث) ترجمها إلى العربية محمد عبد ابراهيم، نشرتها مجلة فصول – أيضا – [١٥]، وكتب عنه المستعرب الإسباني (بدرو مارتينت مونتابث) دراسة بعنوان: (أدونيس، النقد الذاتي العربي) قام بترجمتها إلى العربية طلعت شاهين ونشرتها مجلة فصول –أيضا– [١٦]، وكتبت عنه (ماريا روزا مينوكال) دراسة بعنوان: (مقدمة في علم الشعر) ترجمها إلى العربية محمد يحيى ونشرت في مجلة فصول –أيضا– [١٧].

كما إننا نجد أدونيس حاضرا في الدرس الأكاديمي العربي بقوة من خلال الرسائل والأطاريح التي كتبت عن منجزه من ذلك –مثلا– دراسة الناقد المغربي بلقاسم خالد، بعنوان: (أدونيس والخطاب الصوفي) التي تقدم بها إلى جامعة (محمد الخامس) في الرباط لنيل درجة الدبلوم، وكانت بإشراف الشاعر محمد بنيس، ونشر قسما منها في مجلة فصول المصرية، حيث تتبع الباحث الملامح الصوفية في النص الأدونيسي بالاعتماد على الأعمال الشعرية الكاملة لأدونيس[١٨].

المبحث الأول: أدونيس وقضية التناص

من شأن الدراسات التناصية أن تتتبع العلاقات بين النصوص، من أجل الوقوف على درجة التأثر والتأثير بينها، إذ يفترض مفهوم التناص أن النصَّ ما هو إلا شبكة من العلاقات المتداخلة بين عدد هائل من النصوص السابقة [١٩]، وقد تخرج الدراسات التناصية إلى تتبع أثر الثقافات الأجنبية والدخيلة ودرجة

١٢– ينظر: تشكيل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني: ٢٣، ١٠٥ و ١٨٥.
١٣– ينظر: أدونيس والبحث عن الهوية، باتريك رافو، ترجمة وليد الخشاب، فصول، م١٦، ع٢: ٧٩.
١٤– ينظر: الصوت المتجول لأدونيس: بيير دينو، ترجمة منى سعفان، فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ٥٦.
١٥– ينظر: أدونيس دراسة في الرفض والبعث. ز.خان ترجمة محمد عبد ابراهيم، فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ١٠٣.
١٦– ينظر: أدونيس النقد الذاتي العربي، بدو مارتنيت مونتابث، ترجمة طلعت شاهين، فصول م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ١٧٣.
١٧– ينظر: مقدمة في علم الشعر العربي، ماريا روزا مينوكال، ترجمة محمد يحيى، فصول م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ١٧٨.
١٨– ينظر: أدونيس والخطاب الصوفي، البناء النصي، بلقاسم خالد، مجلة فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ٦١.
١٩– ينظر –مثلا– تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص: ٤٣، والتفاعل النصي (التناصية) النظرية والمنهج، دراسات في النص والتناصية (نصوص)، المسبار في النقد الأدبي، دراسة في نقد نقد للأدب القديم والتناص: ١٣٩، والتفاعل في الاجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الاجناس النثرية القديمة: ٩٣.

التواشجات التي تتركها ثقافة ما على أثر فكري، أو أدبي معين، فتكون بذلك أقرب إلى الدراسات المقارنة [٢٠].

وقد نال المنجز الأدونيسي نصيبه من الدراسة التناصية عند أكثر من ناقد عربي حاول عرض ذلك المنجز على النصوص التي تواشج معها أدونيس.

ومن أهم الكتب التي حاولت عرض المشروع الأدونيسي في ضوء التناص، كتاب الشاعر والمترجم العراقي المغترب كاظم جهاد الذي عنونه: (أدونيس منتحلا، دراسة في الاستحواذ الأدبي وارتجالية الترجمة، يسبقها: ما هو التناص؟).

وتأتي أهمية كتاب (أدونيس منتحلا) من ثقافة مؤلفه الأدبية، بوصفه شاعرا وناقدا؛ يعرف أسرار الصنعة الشعرية، وخفايا التراث العربي؛ الشعري والنثري، فضلا على إجادته اللغتين الإنكليزية والفرنسية، مما سهل عليه مهمة التدقيق في نصوص أدونيس الشعرية، ومقارنتها بنصوص عربية وأجنبية، فضلا على أن المؤلف استقصى ما كتب في هذا الموضوع من دراسات كتبها نقاد وأدباء من بلدان عربية مختلفة حاولت كشف السرقات الأدونيسية، ومن كل ذلك توصل من خلالها إلى أن النصوص الشعرية والنقدية التي أصبح أدونيس بموجبها عَلَما من أعلام الأدب العربي المعاصر كانت أغلبها مسروقة، أو انها نسخاً محرفة من تلك النصوص الأجنبية، وكانت فكرة الكتاب كله تدور حول هذه القضية، ومن هنا جاءت تسمية عنوان الكتاب بـ: أدونيس منتحلا، دراسة في الاستحواذ الأدبي وارتجالية الترجمة، يسبقها: ما هو التناص؟.

ويرى مؤلف الكتاب –كاظم جهاد– إن الذي يفعله أدونيس ليس تناصاً ((فالتناص شيء والإغارة شيء آخر، إن الاستعارة شيء، والسطو شيء آخر، إن السرقة الخلاقة شيء والمحمولة شيء، والانتحال السلبي والمتغافل شيء آخر أيضا))[٢١]، لذلك فإن المؤلف يعدُّ كتابه هذا ليس هجوما على أدونيس، بل هو وثيقة مدعمة بالشواهد تحاول أن تحاكم أحد العاملين في الثقافة العربية[٢٢]، لذلك يستحث المؤلف أدواته البحثية، للوقوف على حقيقة التناص، والمصطلحات القريبة منه، كالسرقة، والإغارة، مستحضرا المدونة النقدية العربية النقدية أولاً؛ بدءا من كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ومرورا برسالتي الحاتمي (ت ٣٨٨هـ): الرسالة الحاتمية، والرسالة الموضحة[٢٣]، مرورا بآراء بلانشو حول التناصات في عمل الشاعر الفرنسي لوتريامون (الأناشيد)[٢٤]، ودراسة الناقد الفرنسي أنيك بوياغيه في هذا الصدد المنشورة في مجلة: الشعرية، التي خصصت عددا مستقلا للتناص، وقد كان اعتماد كاظم جهاد في أغلب آرائه في تحديد مفهوم التناص في النقد المعاصر على ذلك العدد [٢٥].

سعى كاظم جهاد إلى تتبع ((أغلب الشواهد (التي) اكتشفها شعراء وباحثون من العراق وتونس وسوريا ولبنان والمغرب))[٢٦] التي اثبتت قيام أدونيس بالسطو على نتاجات الآخرين، لذلك يستعين المؤلف أولا

٢٠– ينظر: علم التناص المقارن، نحو منهج عنكبوتي تفاعلي: ١٣٥.
٢١– أدونيس منتحلا: ٦
٢٢– ينظر: أدونيس منتحلا: ٦.
٢٣– ينظر: أدونيس منتحلا: ١٣–٢٢.
٢٤– ينظر: أدونيس منتحلا: ٢٧–٣٣.
٢٥– ينظر: أدونيس منتحلا: ٣٤.
٢٦– أدونيس منتحلا: ٥.

بدراسة للشاعر العراقي عادل عبدالله يثبت فيها قيام أدونيس بسرقة شبه حرفية لنصوص من المتصوف الإسلامي النفري، ونسبتها إلى نفسه في كتابه: تحولات العاشق[٢٧]، ودراسة للناقد التونسي منصف الوهايبي، بعنوان: الجسد المرئي، والجسد المتخيل في شعر أدونيس –قراءة تناصية– توصل من خلالها إن ما يقوم به أدونيس لا يقع تحت باب التناصات، إلا أن كاظم جهاد – بعد أن أورد النصوص الأدونيسية تلك– أكد: ((إن جميع المعايير تجتمع لتنفي عن نصوص أدونيس هذه صنعة التناص الشرعي والأخذ الحلال))[٢٨]، فهي نصوص تحاكي تماما نصوصا مشابهة لنصوص (بودلير)، و(المسعودي) في كتابه: (مروج الذهب) و(جان بول سارتر) و(جاك دريدا) و(أبي يزيد البسطامي) و(أبي العلاء المعري)، و(بيرس)، و(ابن الاثير)، و(الاصمعي)[٢٩].

ثم يستعين المؤلف –أيضا– بدراسة للشاعر العراقي (صلاح نيازي) موسومة بـ (أدونيس في ديوانه الأخير، تتقدم الشهرة، والشعر لا يتقدم))[٣٠] أثبت فيها كاتبها إن أدونيس ((يضيق ذرعاً بالنقد ويستشيط لدرجة السباب))[٣١]، ثم يضع نيازي أكثر من علامة استفهام حول السلوك الثقافي لأدونيس، لينتقل بعد ذلك إلى ميله إلى تعمد الوعورة والانغلاق في كتاباته، لا سيما في مجموعته: (شهوة تتقدم في خرائط المادة) التي تماهى فيها كثيراً –بحسب نيازي– مع (غاستون باشلار) و(هيرقليطس) و(ابن عربي) و(البسطامي) الذي عوَّل عليه أدونيس كثيراً[٣٢].

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى مقال الدكتور عبد الواحد لؤلؤة ((من قضايا الشعر العربي المعاصر، التناص مع الشعر الغربي)) ليضع اليد على النقاط المهمة التي استنتجها لؤلؤة وختمها بقوله: ((اعتراف أدونيس بالأخذ من الآخرين لا يأتي إلا مضببا ومزهوا...))[٣٣].

ولم يكتف كاظم جهاد بتتبع السرقات الشعرية لأدونيس، بل حاول أن يضع اليد على سرقاته النقدية، وكشف مصادرها، فقد اتضح لديه بأن أدونيس عمد إلى الإغارة على (سوزان برنار)، الناقدة الفرنسية المعروفة، لا سيما في كتابها: (قصيدة النثر من بودلير حتى أيامنا)، ومن الناقد الفرنسي (بيرس) مؤلف كتاب: (الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين) الذي أخذ منه أدونيس نصوصا كاملة بصورة حرفية، ونسبها إلى نفسه في كتابه: (زمن الشعر)[٣٤]، ومن الشاعر المكسيكي (أوكتافيو باث)، ومن الشاعر (صلاح ستيته)، كذلك سرقته الحرفية لمقال للكاتب (جيرار بونو) التي تصل إلى حد التطابق[٣٥].

٢٧– ينظر: أدونيس منتحلا: ٧٩–٨٣، وللمزيد يمكن الرجوع الى: تحولات العاشق، والأعمال الصوفية للنفري للتثبت من صحة تلك النصوص.

٢٨– أدونيس منتحلا: ٨٥.

٢٩– ينظر: أدونيس منتحلا: ٨٤.

٣٠– أدونيس منتحلا: ٩٤.

٣١– أدونيس منتحلا: ٩٥.

٣٢– أدونيس منتحلا: ٩٤ – ٩٧.

٣٣– أدونيس منتحلا: ١٠٦.

٣٤– ينظر: أدونيس منتحلا: ١٠٩، للمزيد ينظر: الاتجاهات الأدبية في القرن وزمن الشعر.

٣٥– ينظر: أدونيس منتحلا: ١٠٧–١٣٢.

ثم ينتقل المؤلف إلى مسالة تقليد أدونيس للأشكال الشعرية عند الشاعر الفرنسي (أوجين غيلفيك) ويعقد مقارنات بين نصوص الرجلين من أجل ذلك[٣٦].

ولم يهمل المؤلف الترجمات التي قام بها أدونيس لعدد من الأعمال الأجنبية، فترجمة أدونيس لأعمال الشاعر إيف دنفوا –بحسب رأي المؤلف– تميزت بالسهو والاستسهال وانعدام القراءة الشمولية[٣٧]، واهماله للخلفيات المرجعية للعديد من مفردات القصائد المترجمة[٣٨].

وكاظم جهاد في القسم الأخير –الرابع– من كتابه موضوع المناقشة (أدونيس منتحلا) ينتقل إلى قضية نقدية ربما تكون بعيدة عن فكرة كتابه، فقد جعل من نفسه في هذا القسم من الكتاب ناقدا تفكيكيا بعد أن حاول تفكيك الأثر الشعري لأدونيس، الذي كان مكرسا –بحسب رأيه– لانتظار بطل رومانسي مخلِّص، فهو منجز قائم على السرّانية (من السرّ) وتضخيم الذات، فهو أدب الأنا المفخّمة المنتفخة، أدب الازدواج والعلاقات الجدلية الثنائية؛ يتخذ الطبيعة مسرحاً، والكتابة مجازا عن العالم، ويصف شعره بأنه شعر العجز عن الانخراط وعدم القدرة على مقاربة الآخر مقاربة إضائية حقة، وهو كذلك شعر التهويل الذي يتوهم نفسه تخييلا، فشعرية أدونيس– بحسب كاظم جهاد– سياحية بمعنى إنها انزلاق على سطح العالم بدل اختراق سطوحه واستنطاق علاماته، وهو –أيضا– شعر الاتكاء على عناصر غير شعرية كتعدد الأقنعة، وبلاغة التفخيم، والتقريرية، والصُحفية، واللعب الشكلي، وغيرها[٣٩].

أدونيس نسخة مشوَّهة

ويرى عبد القادر محمد مرزاق في كتابه (مشروع أدونيس الفكري والابداعي): ((إن أدونيس في قضية إعلان موت الله سبحانه، ما هو إلا نسخة مشوهة من النسخة النيتشوية))[٤٠]، فأدونيس يجتر أفكار غيره، وما أحاديثه عن الأصالة، والثورة، والرؤية الشعرية إلا تمويه[٤١].

وقد لاحظ أكثر من ناقد عربي أن أدونيس في مسألة (الله) إنما يقتفي آثار الفيلسوف الألماني (فريدريك نيتشه)، ولهم في ذلك شواهد، منها قول أدونيس:

لا اللهَ اختارُ ولا الشيطانَ
كلاهما جدار
هل أبدلَ الجدارَ بالجدار؟[٤٢]

ويقول أدونيس – أيضاً –:

اليوم حرقت سراب السبت سراب الجمعة
اليوم طرحت قناع البيت

٣٦– ينظر: أدونيس منتحلا: ١٣٥–١٤٤.
٣٧– ينظر: أدونيس منتحلا: ١٤٨.
٣٨– ينظر: أدونيس منتحلا: ١٨٩.
٣٩– ينظر: أدونيس منتحلا: ٢٠٣–٢٢١.
٤٠– مشروع أدونيس الفكري والابداعي رؤية معرفية: ٣٥٧.
٤١– ينظر: مشروع أدونيس الفكري والابداعي رؤية معرفية: ٣٥٢.
٤٢– الأعمال الشعرية الكاملة: ١٨٨.

وبدلت إله الحجر الأعمى وإله الأيام السبعة
بإله ميت[٤٣]
ويقول أيضا:
مات إله كان من هناك
يهبط من جمجمة السماء
لربما في الذعر والهلاك
في الباس، في المتاهة
يصعد من اعماقي الإله[٤٤].

فالملاحظ أن أدونيس هنا يتماهى مع نصِّ (نيتشه) بهذا الخصوص الذي ذكره في كتابه: (هكذا تكلم زرادشت)، يقول نيتشه: ((أين الله؟ سأقول لكم، لقد قتلناه – أنتم وأنا، نحن، نحن كلنا، قتلته... ألسنا نسمع أخيرًا صخب الحفارين الذين دفنوه؟ ألم نشعر بشئ بعد من التحلل الإلهي؟ لأن الآلهة أيضًا تتحلل؟ لقد مات الله...)) [٤٥].

وحينما يقول أدونيس في كتابه: (الثابت والمتحول): ((لم يغير الإسلام الموقف الجاهلي من الشعر؛ لا من حيث النظر إلى وظيفته، ولا من حيث تقييمه، فقد أضفى عليه شأن الجاهلية بعدا لا زمانيا من حيث إنه ربط التعبير الشعري بقضايا مطلقة: الأخلاق، والقيم بعامة، فجعل الشعر عقليا يدور حول مقولات وأفكار جماعية أكثر مما يدور حول تجارب فردية))[٤٦]، يرد عليه مؤلف كتاب: مشروع أدونيس بالقول: ((... يتمادى أدونيس في ركوب الوعر، ويسقط أحكاما جزافية تؤكد شيئا وحيدا في قراءة نفسه –ولا شيء سواه– وإلا لكلّف نفسه عناء البحث والتمحيص، ولما أصدر مثل هذا الادعاء))[٤٧].

المبحث الثاني: أدونيس على طاولة النقد الثقافي

يحاول النقد الثقافي الوقوف على الأنساق المضمرة والخفية التي تحفز الطاقات الإبداعية وتدير دفتها خفية فتظهر مفاتن النص وتخفي عيوبه بحسب ما تتطلبه حاجات المجتمع والسلطة، لذلك يسعى النقد الثقافي إلى إبراز ما سكت عنه النص، فالمشتغلون في هذا النوع من النقد يبحثون عن جذور تلك الأنساق والعيوب في خفايا الثقافة التي تسيطر على المجتمع، ومن هنا جاءت تسميته بالنقد الثقافي، إذ إنه يؤكد على أن الأدب نتاج ثقافي، تتحكم فيه ثقافة محددة بزمان ومكان معينين ويدور–أيضا– بمدار سلطة المجتمع والحكومات، ويزعم النقد الثقافي أنه بهذا الفهم الجديد لقضية اللغة والأدب يصحّ أن يكون بديلا –لابد

٤٣– الأعمال الشعرية الكاملة: ١/٣٤٦.
٤٤– الأعمال الشعرية الكاملة: ١/٢٨٤.
٤٥– هكذا تكلم زرادشت: ٢٣٤.
٤٦– الثابت والمتحول: ١/ ٦٥.
٤٧– مشروع أدونيس الفكري والابداعي: ٣٦٤.

منه– للنقد الأدبي الذي يفترض أن ينتهي دوره الآن بعد عهود من الانقياد للسلطة الحاكمة والترويج لثقافتها [٤٨].

يرى الناقد السعودي الدكتور عبد الله الغذامي– بوصفه من أبرز المشتغلين في ميدان النقد الثقافي العربي – إن أدونيس يعدّ من أشد ممثلي الخطاب السلطوي الذكوري (التفحيلي) بكل سماته النسقية، فهو رجعي واضح إذا، وإن بدا حداثيا وثوريا في الظاهر لأنه ما فتيء يمثل النسق الفحولي القديم من خلال الأنا الفحولية المتجسدة في كتاباته، وذاته المتعالية، فضلا على إلغائه الآخر، وكأن أدونيس– عند الغذامي – يتصور أن الحداثة تهدف إلى احلال طاغية محل طاغية آخر، لذلك فان أدونيس– بحسب الغذامي أيضا –يسعى لتأسيس نوع من الخطاب اللاعقلاني، متمثلا بالخطاب السحراني (كذا) [٤٩].

ويتتبع الغذامي ظاهرة (الفحولة) عند أدونيس منذ لحظة استبدال اسمه بأدونيس، فهذا اللقب لفظة مفردة تدل على رغبة أدونيس في التحول من الفطري والشعبي إلى الطقوسي، وهو كذلك يشي بالتفرد بوصفه مؤلَّفا من كلمة واحدة، على الضد من اسمه الثلاثي –فهو– أي أدونيس– يحمل مضامين وثنية متعالية، وهيبة أسطورية غارقة في التاريخ؛ هذا التحول رافقه تحول آخر على المستوى الانتاج الأدبي لصاحبه، فديوانه: ((مفرد بصيغة الجمع) يقدم صيغة مثالية للنسق، في تجاوبه مع الاسم الذي اختاره[٥٠].

ويرى الغذامي أن الاسم الذي اختاره أدونيس رافضاً الاسم الذي اختاره له أهله عند الولادة يدل على عقلية (فحولية)، وتعالي الأنا، تماما مثل ما نجد عند المتنبي حينما صار أبا لجدته[٥١].

ويستشهد الغذامي على تضخم (الأنا الأدونيسية)، وفحولته بمقاطع من ديوان أدونيس: (مفرد بصيغة الجمع)، فأدونيس يتحدث عن نفسه في هذا الديوان بهذه الصيغ:

أنا العالم مكتوبا، وأنا المعنى، وأنا الموت، وأنا سماء وأتكلم لغة الأرض، وأنا التموج، وأنا النور، وأنا الأشكال كلها، وأنا الداعية والحجة[٥٢].

ويرى الغذامي إن أدونيس – وبواقع فحولته الشعرية –جعل الزمن زمنا للشعرية فقط في كتابه: (زمن الشعر) فليس هناك حداثة في الفكر والاقتصاد أو السياسة أو المجتمع، لذلك فزمننا هو زمن شعري[٥٣].

وأدونيس – تبعاً لنقد الغذامي – يرى استنادا على فحولته بأن الشاعر يمثل كلّ شيء، ولا شيء سواه[٥٤]، ثم أن أدونيس يحتفي بالشعر، ويؤمن به إلى حد مخيف، فعنده –مثلا– إننا –نحن العرب – أمة شاعرة، ولذلك يزعم أن العرب بالشعر وحده أكثر تقدما من أمريكا، فالشعر مجد عظيم، بل هو المجد

٤٨– ينظر: تحولات النقد الثقافي، النظرية والنقد الثقافي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، وما النقد الثقافي، جوهان سميث، ترجمة سهيل نجم، مجلة مسارات ع١ السنة الأولى، ٢٠٠٥، والنقد الثقافي، إشكالية المصطلح، صالح زامل،، مجلة مسارات، ع١ السنة الأولى، ٢٠٠٥، والنقد الثقافي (ملف) مجلة الأقلام ع١ لسنة ٢٠٠٩، والنقد الثقافي، مطارحات في النظرية والنهج والتطبيق، عبدالله إبراهيم، مجلة فصول ع٦٣ السنة ٢٠٠٤، والنقد الثقافي في الدراسات النقدية العربية، د.سمير الخليل، مجلة آفاق أدبية، ع٣،٤ لسنة ٢٠١٠، والوقوف خارج الثقافات، النقد الثقافي الغربي والحداثة العربية، مهند طارق نجم، مجلة الأقلام، ع١ لسنة ٢٠٠٩.

٤٩– ينظر: النقد الثقافي، قراءة في الانساق الثقافية العربية: ٢٧١.

٥٠– ينظر: النقد الثقافي، قراءة في الانساق الثقافية العربية: ٢٧٢.

٥١– ينظر: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية: ٢٧٢.

٥٢– ينظر: مفرد بصيغة الجمع: ٤٤ و ٦٤ و ٦٥ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٥ و ١٢٦، والنقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية: ٢٧٣.

٥٣– ينظر: زمن الشعر: ٩–١٠والنقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية: ٢٧٥.

٥٤– ينظر: صدمة الحداثة: ٢٨٢، والنقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية،: ٢٧٧.

الأعظم، لذلك فإن الغذامي وبناء على هذه المقولات الأدونيسية يرى بأن لاحتفاء أدونيس بالشعر بهذا الشكل دلالة نسقية على فحولته[٥٥].

ويلخِّص الغذامي سمات الخطاب الشعري الأدونيسي بأنه خطاب غير منطقي وغير عقلاني، ومضاد للمعنى، وهو تغيير في الشكل فقط، يعتمد اللفظ، ثم أنه خطاب نخبوي غير شعبي، منفصل عن الواقع، ولا تاريخي، متعال وفردي، ومناوئ للآخر بوصفه خلاصة كونية متعالية وذاتية، يعتمد على احلال فحل محل فحل آخر، وسلطة محل سلطة، وأخيراً يرى الغذامي بأن خطاب أدونيس الشعري خطاب سحري، الأنا فيه تمثل المركز[٥٦].

وكان الغذامي قد نشر في عام ١٩٩٧- أي قبل صدور كتابه المتقدم: (النقد الثقافي) - مقالا مطولا في مجلة فصول المصرية بعنوان: (ما بعد الأدونيسية، شهوة الأصل) يظهر إنه كان إرهاصا لرأيه حول أدونيس في كتابه المذكور الذي صدر في طبعته الأولى عام (٢٠٠٠) لكن الملاحظ على المقال المذكور أنه كان أخف لهجة مما صار إليه في كتابه النقد الثقافي.

فالغذامي في المقال المذكور يعذر أدونيس في مسألة تحولاته المتكررة أو في (كرّه وفرّه) - بحسب تعبير الغذامي- أمام رفض المجتمع للتحديث، واقتصار الحداثة على النخبة فقط[٥٧]، فقراء أدونيس أو ممن كتبوا عنه، سواء في السلب أم في الإيجاب هم على حق طالما أن نصَّ أدونيس كان يحتمل كل هذه المرونة أمام تلك القراءات[٥٨].

ويرى الغذامي -أيضا- أن خطاب أدونيس تلفه الأحجبة التي تتباين من قارئ لآخر، ومع ذلك كله فحضور أدونيس بوصفه مؤلفا لا يسمح لفكرة (موت المؤلف) أن تسلسل إلى أذهان قرائه لذلك سعى الغذامي في مقاله هذا أن يقرأ أدونيس قراءة تزيح عنه تلك الحجب، ولا يتم ذلك إلا بالتوجه للنص الأدونيسي نفسه، والوقوف على إعلان (موت المؤلف) للوقوف على (خلاصته) - بحسب تعبير الغذامي - وخلاصة أدونيس عنده تتمثل في الأصل، أو التأصيل، الذي انشغل به أدونيس لدرجة التماهي، والأصل عند أدونيس هو الشعر الجاهلي، والقرآن الكريم، والحديث، فالحداثة عنده تتمثل بالنبش في ذاك الأصل، واعادة قراءته، فنحن أمة ذات أصول مسروقة ومخبأة عن عيونها، وفي الوقت ذاته نحن أمة تمتلك الشهوة للأصل، والحداثة عند أدونيس بحث عن الأصل من أجل مجاوزته، فجذور الحداثة الشعرية كامنة في النص القرآني، إذ إنَّ القرآن أصل لها، ورغبة أدونيس في البحث عن الأصل دفعته إلى أن يكتب عن محمد بن عبد الوهاب، بوصفه أبرز من ارتد إلى فكرة (التوحيد) الخالصة، فالتوحيد أصل الأصول[٥٩].

وعلى الرغم من إن أدونيس لا يقدم لنا تعريفا لمفهوم الأصل رغم أن كتاباته تدل على انشغاله، وانهمامه به لكنّ الدكتور الغذامي في مقالته تلك يحاول جاهدا أن يضع اليد على تلك الفكرة التي شغلت أدونيس فتوصل - وانطلاقا من نصوص أدونيس نفسه- إلى أن الفكرة الأصل عند أدونيس لا تتحقق إلا بتماهي

٥٥- ينظر: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية: ٢٩١.
٥٦- ينظر: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية: ٢٩٣-٢٩٤.
٥٧- ينظر: ما بعد الإندونيسية، شهوة الأصل، مجلة فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ٩.
٥٨- ينظر: ما بعد الأدونيسية، شهوة الأصل، مجلة فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ٩
٥٩- ينظر: ما بعد الأدونيسية، شهوة الأصل، مجلة فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ١٢.

(الأنا) مع الذاكرة الجماعية، لذلك من غير الممكن أن يعرف الأصل على حقيقته لذلك يبدو البحث نبشا في مرتكزات تلك الجماعة الثقافية، وعليه فأن البحث عن الأصل، يعني مشاكسة تلك الأصول الثقافية التي من أهمها اللغة، فلا حداثة بدون مجاوزة ذلك الأصل العتيد [٦٠].

وهكذا نجد الغذامي يحاكم أدونيس في أهم مسألة شكلت هويته وشخصيته الثقافية والشعرية وهي مسالة (التفرد) التي حاول أدونيس أن يحقق ذاته من خلالها مهما كانت السبل حتى وإن كانت على حساب مشاكسة الثوابت المسلَّم بها.

ويأتي كتاب الناقد (أحمد دلباني) ضمن الكتب التي حاولت قراءة أدونيس قراءة ثقافية بالاعتماد على أغلب مؤلفاته الشعرية والنثرية، فالمؤلف يعترف في مقدمة كتابه بأن علاقته مع أدونيس علاقة الطالب بأستاذه، فهو أدونيسي دونما لبس؛ واقع تحت تأثير الأدونيسية لكنه في الوقت ذاته –وهذا ما لاحظه الباحث أيضا– يحاول مساءلة الطروحات الأدونيسية بروح نقدية مبصرة، بعد مرور كل هذه السنوات على تبلور المشروع الأدونيسي، لذلك كله عدل المؤلف عنن تسمية كتابه من: (أدونيس معلّما)– بوصفه معلمه شخصيا – إلى التسمية: (مقام التحول) [٦١].

وبعد أن يستعرض المؤلف أفكار أدونيس في كتبه: (الثابت والمتحول: وفاتحة لنهايات القرن، والنص القرآني وآفاق الكتابة) وغيرها، يصل إلى نتيجة– وإن كان دلباني يطرحها بصورة خجولة– مفادها أن النقد الأدونيسي قد لا يكون كافيا في إرجاعه (الثبات الثقافي) العربي إلى الدين[٦٢].

ومع تأثر الكاتب دلباني بالفكر الأدونيسي، إلا أن القارئ في كتاب: (مقام التحول)، يلحظ لجوء المؤلف إلى لغة متكلفة أحيانا، لا تخلو من تعسف وتمحل على الضد من كتابات أدونيس النقدية التي تمتاز بشاعريتها وسلاستها، وعلى سبيل المثال، يقول المؤلف في مقدمة كتابه المذكور: ((وهذا ما جعلني أقف على هاوية المعنى المتهدم بفعل رجة الحداثة العقلية وألمح نشيد الغبطة الكينونية العميقة يتصاعد من هيولي العالم وقد رد إلى اللا تشكل، ومن خلال الخطاب الأدونيسي، يولد طفلا يمارس لعبة خلق العالم الخطرة التي نسميها الشعر، بما هي تشكيل لا ينتهي في سديم الغبار التاريخي...))[٦٣]، وكأن الناقد يضمر ولا يفصح، يقدم خطوة ويؤخر أخرى أمام أدونيس الذي وصفه بأنه أستاذه ومعلمه.

المبحث الثالث: أدونيس في النقد الفلسفي

ويخصِّص عادل ضاهر(هكذا يرد اسمه على أغلفة مؤلفاته)، أستاذ الفلسفة اللبناني كتابا بعنوان: (الشعر والوجود؛ دراسة فلسفية في شعر أدونيس) محاولا الوقوف على أهم الرؤى الفلسفية وأبرز المقولات الفكرية عند الشاعر بحسب ما وجده في شعره.

يرى عادل ضاهر –أولا– إن من بين العوامل التي ساعدت على تكوين شخصية أدونيس (الشعرية – – الفكرية): انتماؤه إلى الحركة القومية، وعلاقته بالتصوف، وانتقاله من دمشق إلى بيروت.

٦٠– ينظر: ما بعد الأدونيسية، شهوة الأصل، مجلة فصول، م١٦، ع ٢، خريف ١٩٩٧: ١٤–١٥.
٦١– ينظر: مقام التحول، هوامش حفرية على المتن الأدونيسي: ٥ –٦.
٦٢– ينظر: مقام التحول، هوامش حفرية على المتن الأدونيسي: ٧٣.
٦٣– مقام التحول: ٨.

إن النزوع الفلسفي- بحسب عادل ضاهر- عند أدونيس لا يعني الرغبة في طرح الأسئلة الفلسفية في قضايا الوجود فحسب، بل ربما يتجاوز ذلك إلى التماهي بين الشعر والفلسفة، ويرى ضاهر أن ذلك التماهي بينهما قد تحقق على يد أدونيس، ويبدو -كما يقول المؤلف- إن تأثر أدونيس بـ (كيركجور) الفيلسوف الوجودي الألماني كان له دور في ذلك الصنيع، لا سيما في ديوان: (أغاني مهيار الدمشقي)[٦٤]؛ الديوان الأبرز لأدونيس، إذ إن هذه القضية قد طبعت الديوان المذكور بطابعها فضلا على حضور مسألة السمات البارزة للثقافة السلطوية التي كانت محور عمل أدونيس الأخير في ديوانه: (الكتاب)[٦٥].

وعلى الرغم من انشغال المؤلف بتتبع الفلسفة الأدونيسية في كتابه إلا أنه ألمح في أكثر من موضع من كتابه المذكور بأن أدونيس شاعر قبل أن يكون فيلسوفا أو منظرا؛ فهو ليس بصاحب نظرية متكاملة في الحياة؛ إنما كل ما يفعله هو أنه يحاول صياغة نظرات فلسفية في قوالب شعرية، فقد شُغِل الرجل بقضايا الفكر والحياة إلى درجة أنه يثير في قارئه أسئلة شتى حول تلك القضايا[٦٦].

ويأتي كتاب الدكتور وائل غالي المعنون: (الشعر والفكر، أدونيس نموذجا) ضمن الدراسات النقدية التي يمكن أن تندرج تحت قائمة النقد الفلسفي على الرغم من الكتاب المذكور يعد بمثابة وثيقة صريحة للدفاع عن أدونيس حتى يبدو أن المؤلف من المشايعين للمشروع الأدونيسي؛ والمدافعين عنه، فقد صبَّ جهده النقدي منافحا عن أدونيس معليا من شأن فلسفته ((فأدونيس شاعر كبير يعبر عن نفسه بقدر ما يعبر عن عصره كله -أي جوهره الحضاري-))[٦٧]، ويرى الباحث أن الابتعاد عن الموضوعية في البحث النقدي تؤول بالقارئ حتما إلى عدم الاطمئنان ثم أن شاعرا مثل أدونيس ليس بحاجة إلى من يروّج فلسفته وأفكاره.

وحينما صدر ديوان أدونيس: (الكتاب؛ أمس المكان الآن) ألفت الناقدة والأديبة السعودية (أسيمة درويش) كتابا كاملا للحديث عنه واستعراضه نقديا، وسمته بـ: (تحرير المعنى، دراسة نقدية في ديوان أدونيس الكتاب ١) وكانت قد نشرت جزءا منه – قبل أن تنشره – في مجلة فصول المصرية في عددها الثاني الصادر في خريف عام ١٩٩٧ ولا بد من الإشارة إلى أن التركيب (تحرير المعنى) الوارد في عنوان كتاب الناقدة قد ورد قبل ذلك في سطر شعري لأدونيس في ديوانه المذكور، فقد كتب أدونيس: هل يحتاج الشعر إلى قيد كي يوغل في تحرير المعنى؟[٦٨].

ومنذ الوهلة الأولى تُظهر أسيمة درويش احتفاء كبيرا بأدونيس وبكتابه المذكور، حتى أنها تشبهه بالأنبياء، فالهمُّ: ((الذي يتآكل أدونيس من الداخل، لا يتأتى من تعهده لأرضه وميراثه غاضبا حانيا وحسب، ولا من شعوره بالذنب من جراء قصور وتوان تجاه الأرض والميراث، فهو يعلم أنه المقدام الأكثر جرأة وشجاعة في اختراق المحظور لبناء المنهج ومد الطرق والجسور لكن ما يتكوى به انسان الداخل في أعماقه يأتي من جرح نبوي الداء؛ إنه جرح الأنبياء الذين يعرفون صحة رسالتهم وعظيم جدواها لكنهم يعلمون -في الوقت ذاته- أنهم سيكونون معرضين للتكذيب والتعذيب والتكفير والنفي والتشريد، وبتعبير

٦٤- ينظر: الشعر والوجود: ١٠-١١.
٦٥- ينظر: الشعر والوجود: ١٢.
٦٦- ينظر: الشعر والوجود: ١٢.
٦٧- الشعر والفكر، أدونيس نموذجا: ٢٣٣.
٦٨- الكتاب: ١/٧٠.

آخر: إن ما يؤرق أدونيس ويعذبه لا يصدر عن حيرته وتردده أو جهله لما يريد، بل يصدر عن علمه الأكيد بصعوبة ما يريد))[٦٩].

وفي مكان آخر من كتابها تقرن أسيمة درويش أدونيس بالمتنبي وتجعلهما في صف واحد، فتقول: ((إن الشعر النوعي الذي يطرحه أدونيس والمتنبي، ومن في صفها ونوعهما، لا يرفع راية تدعو الآخرين إلى المشي خلفها، ولا يطرح أجوبة تعطي أية ضمانة تكفل الحلول، ومثل هذا الشعر لا يترك أثرا في المكان إلا عبر ما يُستقبل من الأزمنة))[٧٠].

إن ما يتصوره القراء من صعوبة النص الشعري الأدونيسي، لا يمكن أن يعزى إلى النص ذاته، بل إلى طريقة قراءته، فالنص الأدونيسي يتطلب قارئا خاصاً، وقراءة فذه، لذلك فإن أسيمة درويش تضع اشتراطات لمن يريد أن يلج عوالم النصوص الأدونيسية، من أهمها: معرفة مؤهلة ببنائية النص الأدونيسي لتعدد مستوياته، فلا تستقيم قراءته إلا بالوقوف على حركة العلاقات الداخلية التي تشكل أهم خصيصة في اللغة الشعرية الأدونيسية، ثم أن النص الأدونيسي – والكلام لدرويش أيضا – يتطلب معرفة شمولية بالتراث العربي؛ شعراً ونثراً ونقداً، فضلا على معرفة التاريخ العربي وتاريخ العالم القديم والجديد، ومعرفة تاريخ الفلسفة، ومعرفة الرموز في أصلها الاسطوري، ومعرفة أصول اللغة، وقواعدها النحوية والبلاغية والصرفية[٧١].

ولا يخفى على القارئ الفطن أن كلام أسيمة درويش المتقدم يشي بأمر قد سكتت عنه الناقدة، فالمواصفات التي وضعتها لقارئ أدونيس تبدو شبه مستحيلة أو صعبة المنال، فأي قارئ هذا الذي يلم بكلِّ هذه العلوم، لكي يكون صاحب الحظوة في قراءة النص الأدونيسي؟ ثم ألا يشي كلام أسيمة درويش ضمنا بأنها نفسها قد حازت كل تلك المعرفة وسبرت عالم أدونيس بكل أريحية ودليل ذلك – عندها – إنها كتبت كتابا كاملا في طرق قراءة النص الأدونيسي وتأويله؟.

إن المتأمل في قراءة أسيمة درويش لأدونيس قد يلحظ أنها كانت معجبة جدا بنصّ (الكتاب)، فلم تقدم لنا رأيا نقديا مغايراً، بل زادت معاني الديوان ارباكا وحيرة بتلك الرسومات التوضيحية التي وردت في كتابها، ثم أن العنوان (تحرير المعنى) يعد مركبا شعريا فهو أكثر ارتباطا بالشعر، فاذا كان أدونيس قد اطلق هذه الجملة في ديوانه فأن مبتغاه منها ينسجم مع رؤاه الشعرية والصوفية، ونحن على يقين إن هذا ما لم تقصده الناقدة في كتابها، وبذلك يكون اطلاقها له عنوانا لكتابها لا يخلو من التسرع وعدم توخي الدقة.

واللافت في كتاب أسيمة درويش أنها غالبا ما تضع اللوم على قراء أدونيس بلغة حدية هجومية فهي تلح على أن الجرح الغارق في الذات الأدونيسية يصدر من تمكن الروح التدميرية من الأمة بأسرها، فقد شملت هذه الروح الناس جميعا، فأذى المسيئين لأنفسهم أكثر خطورة من أذاهم له، إلا أن أخطر ما في الأمر –بحسب كلام الناقدة–: إن الوطن أصبح ماحلا إلا من صرخات وأبواق رعب، والنذير يرج المكان، يزلزل ذات الشاعر رعباً [٧٢].

٦٩– تحرير المعنى، مجلة فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ٣٠٨.
٧٠– تحرير المعنى، مجلة فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ٣١٠.
٧١– تحرير المعنى، مجلة فصول، م١٦، ع٢، خريف ١٩٩٧: ٣١١.
٧٢– ينظر، تحرير المعنى، مجلة فصول، م١٦، ع٢:٣١٩–٣٢٠.

ومما تقدم يمكن أن يلحظ القارئ إن قراءة أدونيس عند أسيمة درويش تحول من نقد النصوص إلى نقد المتلقي وهو منحى غريب في النقد الأدبي لا نحسبه موفقا على أية حال.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة النقدية في رحاب النقد الموجه للمنجز الأدونيسي لا بدّ من القول أن أدونيس كان محط اهتمام النقاد والدارسين، فقد كان هؤلاء بين مشيد بجهوده معجب بما يكتب وبين قادح لا يرى في منجز الرجل سوى مشاكسات قد تخرج أحيانا عن المألوف الأدبي والعرفي.

وقد وُجد من بين النقاد من حاول أن يكون حياديا؛ ويدرس ما كتبه أدونيس بروح موضوعية، وقد استغرقت تلك الجهود عشرات الكتب والدراسات والمقالات التي كتبها نقاد عرب وأجانب في سنوات طويلة.

وقد استنتج الباحث من خلال استعراضه لعدد من الجهود النقدية البارزة التي اتخذت المنجز الأدونيسي موضوعا للقراءة والنقد:

أولا: إن ذلك المنجز كان متنا مختلفا فنيا وأسلوبيا عما هو سائد في الأدب العربي كما نلحظ ذلك في كتابه (الكتاب) -على سبيل المثال-.

ثانيا: إن أدونيس قد اعتمد المغايرة القصدية، فهو يعمد إلى ذلك عن وعي تام بما يكتب.

ثالثا: إن المنجز الأدونيسي طبع بطابع الجدة بغض النظر عن المواقف إزاء تلك الجدة فقد كان الرجل مفكرا مثقفا ومنظرا ممتازا حاول جاهدا أن يسوغ ويقدم المبررات الفكرية والأدبية لما يذهب إليه بطريقة فذة.

وتبعا لما تقدم كان أدونيس محط اهتمام النقاد والدارسين الذين كانت لهم مواقف أبانوا عنها في ما كتبوه، وحسب الشيء أن يكون محط اهتمام الآخرين لكي يعد من الأمور الجديرة بالعناية تأييدا أو ردّا.

يوصي الباحث:

أولا: أن يُدرس المتن الأدونيسي – أدبا وفكرا – للوقوف على السمات التي مرّت في الاستنتاجات لما للرجل من تأثير واضح على كثير من الشعراء المعاصرين.

ثانيا: أن يُدرس الموقف النقدي من أدونيس بصورة أعم وأكثر توسعا للوقوف على فعل التلقي للمنجز الأدونيسي.

المصادر

١. أدونيس منتحلا، دراسة في الاستحواذ الأدبي وارتجالية الترجمة، يسبقها: ما هو التناص؟ كاظم جهاد، مكتب مدبولي، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٣.

٢. إضاءات على عالم أدونيس، دراسات، علا عيسى، مكتبة الشعب، كفر قاسم، فلسطين، ط٢، ٢٠٠٣.

٣. الأعمال الشعرية الكاملة، أدونيس، دار العودة، بيروت ط٤، ١٩٨٥.

٤. تحرير المعنى: دراسة نقدية في ديوان أدونيس، أسيمة درويش، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

٥. تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥.
٦. تحولات النقد الثقافي، أ.د. عبد القادر الرباعي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٧.
٧. تشكيل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، قراءة في آليات بناء الموقف النقدي والأدبي عند الشاعر العربي المعاصر، أ.د حبيب بوهرر، عالم الكتب الحديث، إربد، ودار جدار للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨.
٨. التفاعل في الأجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة، بسمة عروس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
٩. التفاعل النصّي (التناصية) النظرية والمنهج، نهلة فيصل الأحمد، مؤسسة الحمام الصحفية، الرياض، السعودية، ١٤٢٣هـ
١٠. الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والابداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨٣.
١١. الحداثة في الخطاب النقدي عند أدونيس، د. فارس عبدالله بدر الرحاوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١١.
١٢. حوار مع أدونيس، الطفولة، الشعر، المنفى، صقر أبو فخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
١٣. دراسات في النصِّ والتناصية (نصوص) ترجمة د. محمد البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ١٩٩٨.
١٤. زمن الشعر، أدونيس، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧.
١٥. الشعر والفكر، أدونيس نموذجا، د. وائل غالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.
١٦. الشعر والوجود، دراسة فلسفية في شعر أدونيس، عادل ضاهر، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٠.
١٧. الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط٢ ١٩٨٩
١٨. صدمة الحداثة، أدونيس، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.
١٩. علم التناص المقارن، نحو منهج عنكبوتي تفاعلي، عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٦.
٢٠. الكتاب– أمس المكان الآن، (ديوان شعر) أدونيس، دار الساقي، لندن، بيروت، ط١ ١٩٩٥،
٢١. المسبار في النقد الأدبي، دراسة في نقد النقد للأدب القديم والتناص، أ. د. حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ٢٠٠٣.
٢٢. مشروع أدونيس الفكري والابداعي، رؤية معرفية، عبد القادر محمد مرزاق، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الامريكية، ط١، ٢٠٠٨.

٢٣. معجم الميثولوجيا الكلاسيكية اليونانية والرومانية، جمع وترجمة كاظم سعد الدين، دار المأمون، بغداد، ط١، ٢٠٠٥.
٢٤. مفرد بصيغة الجمع، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.
٢٥. مقام التحول وهوامش حفرية على المتن الأدونيسي، أحمد دلباني، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٩.
٢٦. النظرية والنقد الثقافي، محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
٢٧. النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د. عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠١.
٢٨. النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، محمد ناصر العجمي، دار محمد علي الحامي، للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، ط١، ١٩٩٨.
٢٩. هكذا تكلم زارادشت، فريدريك نيتشه، ترجمة فيلكس فارس، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت.

المقالات

١. أدونيس، النقد الذاتي العربي، بدرو مارتنيت مونتابث، ترجمة طلعت شاهين، مجلة فصول، مجلد ١٦، العدد الثاني، خريف عام ١٩٩٧.
٢. أدونيس دراسة في الرفض والبعث. ز.خان ترجمة محمد عبد ابراهيم، فصول، مجلة فصول، مجلد ١٦، العدد الثاني، خريف عام ١٩٩٧.
٣. أدونيس والبحث عن الهوية، باتريك رافو، ترجمة وليد الخشاب، فصول، مجلة فصول، مجلد ١٦، العدد الثاني، خريف عام ١٩٩٧.
٤. أدونيس والخطاب الصوفي، البناء النصي، بلقاسم خالد، مجلة فصول، مجلد ١٦، العدد الثاني، خريف عام ١٩٩٧.
٥. تحرير المعنى، أسيمة درويش، مجلة فصول، مجلد ١٦، العدد الثاني، خريف ١٩٩٧.
٦. الصوت المتجول لأدونيس: بيير دينو، ترجمة منى سعفان، مجلة فصول، مجلد ١٦، العدد الثاني، خريف عام ١٩٩٧.
٧. ما النقد الثقافي، جوهان أسميث، ترجمة سهيل نجم، مجلة مسارات، ع١، السنة الأولى، ٢٠٠٥.
٨. ما بعد الأدونيسية، شهوة الأصل، عبدالله محمد الغذامي، مجلة فصول، مجلد ١٦، العدد الثاني، خريف عام ١٩٩٧.
٩. مقدمة في علم الشعر العربي، ماريا روزا مينوكال، ترجمة محمد يحيى، مجلة فصول، مجلد ١٦، العدد الثاني، خريف عام ١٩٩٧.
١٠. النقد الثقافي (ملف)، مجلة الأقلام، ع١، ٢٠٠٩.
١١. النقد الثقافي، إشكالية المصطلح، صالح زامل،، مجلة مسارات، ع١ السنة الأولى، ٢٠٠٥.
١٢. النقد الثقافي، مطارحات في النظرية والنهج والتطبيق، عبدالله إبراهيم، مجلة فصول ع٦٣، ٢٠٠٤.

١٣. النقد الثقافي في الدراسات النقدية العربية، د.سمير الخليل، مجلة آفاق أدبية، ع٣،٤ لسنة ٢٠١٠.
١٤. الوقوف خارج الثقافات، النقد الثقافي الغربي والحداثة العربية، مهند طارق نجم، مجلة الأقلام، ع١ لسنة ٢٠٠٩.